القصص القرآني ونشأة وتطور التفسير الموضوعي

أ. بشير عثمان
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

الملخص:

قضية نشوء وتطور التفسير الموضوعي للقرآن الكريم من القضايا الجوهرية في دراسة هذا المنهج العلمي. ويعود ذلك لارتباطها الوثيق بمسألة التأصيل لهذا المنهج، فهناك من يذهب إلى أنه منهج قديم، وهناك من يرى أنه حديث، وكلا الفريقين تناسى التأليف في قصص الأنبياء والقصص القرآني عموما. هذا القصص القرآني الذي يعد مجالا بارزا لاستخدام منهج التفسير الموضوعي. لم ينتبه المنظرون إلى التأليف في قصص الأنبياء، ولم يشيروا إليه في دراساتهم، رغم أنهم كانوا في أمس الحاجة إلى أدلة علمية وعملية تثبت أصالة وعراقة هذا المنهج العلمي. ذلك ما سنحاول بيانه والاستدلال عليه من خلال هذا البحث.

Abstract :

The issue of the emergence and development of substantive interpretation of the Holy Quran of the core issues in the study of the scientific method. This is due to the close association with the question of rooting for this approach, there are those who go to that approach is old, and there are those who believe that modern, and both teams forgot authoring the stories of the prophets and generally Quranic stories. This Quranic stories, which is a prominent area for the use of objective method interpretation. Theorists did not pay attention to the copyright in the stories of the prophets, did not refer to it in their studies, even though they were in dire need of scientific evidence and practical to prove the authenticity and nobility of this scientific method. So what we will try his statement and inferred through this search.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مقدمة

من المباحث المهمة في التفسير الموضوعي مبحث نشأة وتطور المنهج، وبعبارة أخرى مسألة التأريخ لهذا المنهج: كيف نشأ؟ كيف تطور؟ هل هو منهج قديم؟ أم أنه منهج حديث؟ هل له أصول في عمل الرسول عليه الصلاة والسلام؟ وعمل الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين وتابعيهم، أم لا؟.

أسئلة كثيرة تفرض نفسها على الباحثين في هذا المنهج، فالمهتمين به والباحثين فيه اختلفوا اختلافا كبيرا في قضية نشأته وتطوره، فهناك من يقول أن هذا المنهج قديم، وهناك من يذهب إلى أنه حديث، وكل فريق يسوق أدلته التي يرى أنها تؤكد ما ذهب إليه. والذين يرون أن المنهج قديم، وأن بوادره ظهرت في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، والصحابة والتابعين رضوان الله عنهم يغفلون مرحلة التأليف في القصص القرآني، فلماذا لا يشيرون إلى التأليف في قصص الأنبياء رغم أن هذه الأعمال والجهود تعتبر بلا مواربة من صميم التفسير الموضوعي؟ لماذا لم ينتبهوا إلى هذه الجهود؟ وفي المقابل نجد أنهم عند محاولة التأصيل للتفسير الموضوعي يذهبون إلى الإشادة بالتأليف في علوم القرآن خاصة منها الناسخ والمنسوخ، والمكي والمدني، والأشباه والنظائر، وأمثال القرآن وأقسامه، وعلم الناسبات وغيره، ولا يذكرون القصص القرآني نهائيا.

اعتمدت في هذه الدراسة على المنهجين الاستقرائي والتحليلي، حيث قمت باستقراء آراء المنظرين لمنهج التفسير الموضوعي وتحليلها، وملاحظة الاختلاف بينها في مسألة التأصيل للتفسير الموضوعي. وقمت بتسجيل سكوتها وعدم ذكرها لمسالة التأليف في قصص الأنبياء، ومحاولة تفسير سبب هذا السكوت.

يجدر بنا قبل ولوج هذا الموضوع الإشارة إلى بعض الدراسات السابقة حول القصص القرآني، ذلك أن معظم هذه الدراسات التي اهتمت بالقصص القرآني، لم تشر نهائيا إلى أن القصص القرآني نموذج تطبقي واضح وجلي للتفسير الموضوعي عند المتقدمين، لم ينتبهوا إلى مسألة التأصيل للمنهج من خلال قصص الأنبياء. أما البعض الآخر، والذي كان مشغولا بالناحية الأدبية والأسلوبية للقصص القرآني بهدف إبراز الإعجاز القرآني،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وتفوق القصة القرآنية على الرواية والقصة الأدبية، فقد كان جل اهتمامه ينحصر في الرد على المستشرقين الذين شككوا في القصة القرآنية، من خلال التأكيد على الأصول التوراتية والإنجيلية للقصص القرآني، ومن خلال قضية التكرار في القرآن.

المستشرقون الذين اهتموا بالدراسة الموضوعية للقرآن الكريم، هم من أوائل من أشار إلى القصص القرآني كنموذج للدراسة التاريخية والموضوعية للقرآن، لكن اهتمامهم بهذه المسألة كان ضمن الدراسة التاريخية للنصوص القرآنية، ومحاولة ترتيب آيات القرآن ترتيبا زمنيا، من جهة، ومن جهة أخرى فإن المنظرين الأوائل للتفسير الموضوعي لم يعيروا إشارات المستشرقين أية أهمية، وهذا راجع إلى ارتيابهم في جهود المستشرقين عموما، بسبب الطابع السائد عليها من التشكيك في الإسلام والتشكيك في القرآن، وقد يكون لعدم اطلاع هؤلاء المنظرين على تلك الجهود.

تظهر أهمية هذه الدراسة في محاولة إبراز دور ومكانة التأليف في القصص القرآني في نشأة وتطور التفسير الموضوعي، وهذا ردا على الذين يذهبون إلى أن التفسير الموضوعي حديث النشأة. فالذين يرون أن التفسير الموضوعي لم يعهده المتقدمون بأي شكل من أشكال التأليف، لم ينتبهوا إلى أن القصص القرآني نموذج من النماذج التطبيقية البارزة للمنهج الموضوعي في التفسير.

وعليه فمن بين أهداف هذا البحث إماطة اللثام عن مرحلة أساسية في مراحل تطور التفسير الموضوعي، والتأكيد على أن التفسير الموضوعي ليس بدعا من المناهج، بل عرفه المتقدمون، حيث طبقوه في فهمهم للقرآن الكريم، خاصة ونحن نعلم أن المفسرين المؤرخين أمثال الطبري وابن كثير قد كتبوا في القصص القرآني وأولوه أهمية كبيرة في مؤلفاتهم.

ولدراسة هذا الموضوع قمت بتقسيم البحث إلى مقدمة وثلاث مباحث وخاتمة، سأتناول في المبحث الأول بعض المفاهيم والمصطلحات الأساسية مثل التفسير الموضوعي والقصص القرآني، في المبحث الثاني سأتناول مسألة نشأة وتطور التفسير الموضوعي، حيث سنقوم باستعراض آراء وأدلة القائلين بقدم النشأة، والقائلين بحداثتها. أما المبحث الثالث فخصصته لبيان علاقة القصص القرآني بالمنهج الموضوعي في التفسير.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

اعتمدت في هذا البحث على مصادر ومراجع عديدة منها على سبيل المثال: المدخل إلى التفسير الموضوعي لعبد الستار فتح الله سعيد، مباحث في التفسير الموضوعي لمصطفى مسلم، التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق لصلاح عبد الفتاح الخالدي، التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا لأحمد رحماني، ومنهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم دراسة نقدية لسامر عبد الرحمن رشواني، هذا بالنسبة للمؤلفات التي نظرت للمنهج، أما كتب التاريخ والقصص القرآني، فمنها تاريخ الرسل والملوك للطبري، والبداية والنهاية لابن كثير، وتاريخ الأنبياء للخطيب البغدادي، وغيرها من المراجع والمصادر.

المبحث الأول: تعريف التفسير الموضوعي والقصص القرآني

من الجدير بالذكر قبل ولوج صلب هذا البحث تعريف المصطلحات الأساسية، خاصة منها التفسير الموضوعي، والقصص القرآني. وقبل بيان معنى التفسير الموضوعي، ينبغي أن نبين معنى التفسير، ثم معنى الموضوع، لغة واصطلاحا.

أولا: تعريف التفسير

من المعلوم أن التفسير لغة هو البيان والكشف والإيضاح، جاء في جمهرة اللغة لابن دريد: "والفسر من قولهم: فسرت الحديث أفسره فسرا، إذا بينته وأوضحته، وفسرته تفسيرا كذلك"[1]، وجاء في الصحاح للجوهري: "الفسر: البيان، وقد فسرت الشيء أفسره بالكسر فسرا، والتفسير مثله"[2]، وجاء في مقاييس اللغة لابن فارس:" الفاء والسين والراء كلمة واحدة تدل على بيان الشيء وإيضاحه [...] والفسر والتفسرة: نظر الطبيب إلى الماء وحكمه فيه، والله أعلم بالصواب"[3] . وعليه فتفسير الحديث هو إيضاحه وبيانه[1]،

1- ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن، كتاب جمهرة اللغة، ت: رمزي منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1: 1987م، ج2/ص 718.

2- الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ت: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط3: 1404هـ- 1984م، ج2/ص781.

3- ابن فارس، أبو الحسن أحمد، معجم مقاييس اللغة، ت: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط:1399هـ- 1979م، ج4/ص504.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومنطلق هذا القول هو تفسير الطبيب للماء ليحكم على أساسه على الشخص إما بسلامته أو بإصابته بالمرض، فقد نقلوا هذا المعنى من معاينة الطبيب لبول الرجل وحكمه فيه بسلامته أو إصابته بالمرض.

وقد بين الخليل نقلهم ذلك عندما قال: "الفسر: التفسير وهو بيان وتفصيل للكتاب، [...] والتفسرة: اسم للبول الذي ينظر فيه الأطباء، يستدل به على مرض البدن، وكل شيء يعرف به تفسير الشيء فهو التفسرة"[2]، فالخليل صريح في القول بنقل معنى التفسير من الطب ومعالجة الأبدان إلى مجال فهم النص وبيانه، وخاصة تفسير كتاب الله عز وجل، وليس في ذلك من حرج لأن كلا العملين يهدف إلى فهم الغامض من الأمور والأشياء.

هذا النقل في الحقيقة هو انتقال باللفظ من المجال المادي المحسوس إلى المجال المعنوي، وهذا ديدن اللغات الإنسانية. لقد تحدث الخليل وابن دريد عن تفسير الكتاب وتفسير الحديث، وأشار ابن فارس والجوهري إلى تفسير الشيء، وهكذا فالمتقدمون من اللغويين يؤكدون على معنى بيان وتوضيح الكتاب والحديث، وعلى النقل من المحسوس إلى المفهوم، وكذلك الانتقال من الخاص إلى العام، فالتعميم نراه عند الخليل عندما يصل إلى نتيجة هامة وهي أن كل ما يعرف به تفسير الشيء فهو التفسرة، لكن الذين جاءوا بعدهم يتحدثون عن تفسير الشيء ولا يشيرون إلى تفسير الحديث والكتاب.

---

[1]– ينظر كذلك: – ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم، لسان العرب، ت:عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، (د، ت)، م5/ج38/ص3412.

– الزبيدي، السيد مرتضى، تاج العروس، ت: عبد الستار أحمد فراج، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، ط:1375هـ–1965م، ج13/ص323.

[2]– الخليل بن أحمد الفراهيدي، أبو عبد الرحمن، كتاب العين، ت: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، (د، ت)، ج7/ص 247–248.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

استعمل العرب لفظ التفسير أصلا في مجال الطب ومعالجة الأبدان، ونقلوا المعنى إلى أمر آخر هو تفسير الأحاديث والنصوص، ثم غاب الأصل وضمر، وبقى استعمال التفسير في مجال فهم الغامض من الأحاديث والنصوص.

هذا فيما يتعلق بالمعنى اللغوي للتفسير، أما المعنى الاصطلاحي فيمكن استخراج عناصره الأساسية من خلال استعراض تعريفاته عند العديد من علماء التفسير وعلوم القرآن، منها مثلا: تعريف الإمام الزركشي الذي قال: "التفسير علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم، وبيان معانيه واستخراج حكمه وأحكامه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف، وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ"[1] . ما يمكن ملاحظته على تعريف الإمام الزركشي هو الإشارة إلى مستويات الفهم الثلاث من بيان المعاني ثم استخراج الأحكام وأخيرا استخراج الحكم، هذا من خلال الجزء الأول من التعريف، أما في الجزء الثاني من تعريفه فيشير إلى الأدوات المساعدة في التفسير من علوم اللغة والنحو والصرف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ.

استخدم الزركشي في هذا التعريف المستويات والأدوات، ومستويات الفهم تخضع عموما لقدرات المفسر وما يمتلكه من أدوات، كما ترتبط من جهة أخرى بمقاصده وأهدافه من التفسير[2]، وقد أشار الزركشي إلى هذا الأمر عندما صرح باختلاف اهتمامات المفسرين، واختلافهم مابين مختصر ومتوسع، قال عن التفسير :"وقد أكثر الناس فيه من الموضوعات، ما بين مختصر ومبسوط، وكلهم يقتصر على الفن الذي يغلب عليه"[3]، فهذا دليل على اختلاف أدوات المفسرين، وتفاوت مستويات فهمهم للنص القرآني.

---

[1]- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، ت:محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، (د، ت)، ج1/ص13.

[2]- أحمد رحماني، التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا، جامعة باتنة، الجزائر، ط: 1998، ص21.

[3]- الزركشي، المرجع، المرجع السابق، ص13.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

إذا عدنا إلى تعريف بعض العلماء فسنلاحظ إشارتهم إلى هذه الأمور، من بين هذه التعاريف نأخذ تعريف محمد الطاهر بن عاشور، قال:" التفسير اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن، وما يستفاد منها باختصار أو توسع"[1]، وكذا تعريف الزرقاني حيث قال:" علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية"[2]، فالحديث عن الاختصار والتوسع، والطاقة البشرية، إشارة إلى تفاوت القدرات البشرية في الفهم، من هنا يأتي اختلاف المفسرين، وتنوع آرائهم، وتنوع مناهجهم ومقاصدهم.

لقد كان المتقدمون يستخدمون مصطلح التأويل بدلا من التفسير، ومن أبرزهم الإمام ابن جرير الطبري الذي سمى تفسيره "جامع البيان عن تأويل آي القرآن"[3]، قال ابن الجوزي: "اختلف العلماء هل التفسير والتأويل بمعنى، أم مختلفان؟ فذهب قوم يميلون إلى العربية إلى أنهما بمعنى، وهذا قول جمهور المفسرين المتقدمين، وذهب قوم يميلون إلى الفقه إلى اختلافهما..."[4]، وهذا يدل على التطور الدلالي لكلمتي التفسير والتأويل، حتى أن البعض عند تعريفهم للتفسير يتجهون أولا لبيان الفرق بينه وبين التأويل، فهذا الإمام السيوطي لا يقدم تعريفا للتفسير، وإنما يركز أولا على التفريق بين التفسير والتأويل، من

1- ابن عاشور، محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ط: 1984م، ج1/ص11.

2- الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، ت: فؤاد أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1: 1415هـ- 1995م، ج2/ص6.

3- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، (د، ت).

4- ابن الجوزي، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد، زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، (د، ت)، ج1/ ص4.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

خلال ما ينقله عن الراغب الأصفهاني[1]، وفي الأخير يأتي بأقوال العلماء في التعريف الاصطلاحي للتفسير مثل تعريفي الزركشي وابن حيان[2].

كل ذلك يدل على أن المتقدين كانوا يستخدمون مصطلح التأويل بمعنى التفسير، ولكن بعد ظهور التأويلات الباطنية والكلامية التي تخرج بالنص عن دلالته الظاهرية، وظهور من لا يتحرج من استخدام الآيات القرآنية للتدليل على آرائه ومذهبه العقدي، حتى ولو كان منحرفا، انتقل الناس إلى استخدام مصطلح التفسير التزاما منهم بظاهر النص والمعلوم من الدين بالضرورة.

خلاصة القول أن التعريف الاصطلاحي للتفسير يتشكل من عناصر أساسية منها:

1- مستويات الفهم (الشرح، التفسير، التأويل)

2- وسائل التفسير (اللغة، أسبا النزول، الناسخ والمنسوخ) بالإضافة إلى (العلوم الإنسانية والكونية)

3- تفاوت قدرات الفهم البشرية

4- الغرض والهدف من التفسير (استخراج الحكم والأحكام)

5- تطور التفسير بتطور المعرفة البشرية[3]

قد لا نجد أن جميع المفسرين يؤكدون على هذه العناصر ، بل ما نلحظه هو تركيز كل مفسر على العناصر التي يرى أنها أساسية عنده وتخدم مفهومه ومنطلقاته الفكرية، وأهدافه العلمية والعملية من التفسير، ورغم كل ذلك فالعناصر الأساسية على العموم هي الالتزام باللغة العربية وعلوم القرآن من أسباب النزول والناسخ والمنسوخ وغيرهما.

ثانيا: تعريف الموضوع

---

[1]- السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتقان في علوم القرآن، ت :مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ط: 1426هـ، ج6/ص2261- 2262.

[2]- السيوطي، ، المرجع السابق، ج6/ص2264- 2265 .

[3]- ينظر: أحمد رحماني، التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا، ص 21-22.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالنسبة لتعريف الموضوع سنعود أولا إلى المعاجم اللغوية، فقد جاء في كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي قوله: "وضع: الوضاعة، الضعة [...] والوضيعة: نحو وضائع كسرى، كان ينقل قوما من بلادهم ويسكنهم أرضا أخرى حتى يصيروا بها وضيعة أبدا [...] والمواضعة : أن تواضع أخاك أمرا فتناظره فيه...[...] والتواضع: التذلل"[1]، وجاء في المحكم المحيط لابن سيده : "الوضع: ضد الرفع"[2]، ثم أضاف: "وناقة واضع وواضعة: ترعى الحمض حول الماء [...] ووضعها ألزمها المرعى [...] والمواضعة: المناظرة في الأمر [...] وموضوع: موضع"[3]. ومن خلال هذه التعاريف اللغوية يمكن لنا تسجيل المعاني التي تحملها كلمة الوضع، و هي كما يلي:

1-الدونية والذلة

2-السكن والركون والثبات في مكان معين

3-المناظرة في أمر ما

هذه المعاني يمكن تسجيلها وملاحظتها في ثنايا معاجم لغوية أخرى منها مثلا: تاج العروس للزبيدي[4]، ولسان العرب لابن منظور[5]. ولقد تنبه الكثير من الباحثين إلى هذه المعاني خاصة منها الإلقاء في مكان ما والتثبت وسموه الوضع المادي، وكذا الحط والخفض وسموه الوضع المادي[6]، لكنهم لم يتنبهوا إلى معنى المناظرة في أمر ما أو مسألة معينة أو موضوع معين، وهذا المعنى هو الأقرب إلى ما نحن بصدد الحديث عنه.

---

[1]- الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين مرتبا على حروف المعجم، ت: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1: 2003م-1424هـ، ج4/ص378.

[2]- ابن سيده، علي بن إسماعيل، المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، ت: عبد الستار أحمد فراج، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، القاهرة، ط1: 1377هـ-1958م، ج2/ص211.

[3]- ابن سيده، المرجع السابق، ج2/ ص214.

[4]- الزبيدي، المرجع السابق، ج22/ص355.

[5]- ابن منظور، المرجع السابق، م6/ج54/ص4857- 4858.

[6]- صلاح عبد الفتاح الخالدي، التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، دار النفائس، عمان، الأردن، ط1 : 1418هـ- 1997م، ص29.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عند بحث عبد الستار فتح الله سعيد لمدى ارتباط المعنى اللغوي بالاصطلاحي، خاصة في عنصر الركون والثبات في مكان معين، يستدل بقوله عز وجل: **چڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڄڄ چ** [الأنبياء/47] حيث أن المفسر يجمع الآيات حول قضية معينة، ويثبتها ويضعها في مكانها الخاص بها المرتبط بالمعنى الكلي للقضية التي يبحث فيها[1]، والحقيقة أن المعنى الأقرب إلى معنى القضية هو ما تحدث عنه اللغويون في المواضعة بمعنى المناظرة في مسألة أو أمر ما، ولهذا فيبدو أن لا عبد الستار فتح الله سعيد ولا الخالدي قد اطلعا على ما جاء في المعاجم اللغوية خاصة ما ذكره الخليل وابن سيده.

بعد نقل فتح الله سعيد لمعنى الموضوع عند المناطقة والمحدثين يأتي إلى بيان معنى الموضوع عند علماء التفسير فيقول هي: "القضية التي تعددت أساليبها وأماكنها في القرآن الكريم، ولها جهة واحدة تجمعها، عن طريق المعنى الواحد، أو الغاية الواحدة"[2]، فالبنسبة للمفسرين فالموضوع هو قضية نستخرجها من القرآن الكريم، تظهر هذه القضية من خلال العديد من الآيات التي تتحد في المعنى أو الغاية، هذا من ناحية، لكن من ناحية أخرى هناك من يذهب إلى تعريف آخر للموضوع، وذلك بالنظر إلى أننا يمكن أن نستخرج الموضوع من خارج النص، أي من الواقع الإنساني والكوني، يقول مصطفى مسلم في تعريف الموضوع اصطلاحا:" قضية أو أمر متعلق بجانب من جوانب الحياة في العقيدة أو السلوك الاجتماعي أو مظاهر الكون التي تعرضت لها آيات القرآن الكريم"[3]، وعليه فحسب تعريف فتح الله سعيد فالموضوع يستقى من القرآن، بينما تعريف مسلم يفيد أن الموضوع قد يستقى من خارج النص القرآني "الواقع". وهذه المسألة لها أهمية كبيرة سنلحظ تأثيرها عند تحديد مصطلح التفسير الموضوعي.

---

[1]- عبد الستار فتح الله سعيد، المدخل إلى التفسير الموضوعي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ط2: 1411هـ- 1991م، ص22.

[2]- عبد الستار فتح الله سعيد، المرجع السابق، ، ص20.

[3]- مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، دار القلم، دمشق، ط1 : 1410هـ- 1989م، ص16

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثالثا: تعريف التفسير الموضوعي

عرف عبد الستار فتح الله سعيد التفسير الموضوعي بقوله:" هو علم يبحث في قضايا القرآن، المتحدة معنى أو غاية، عن طريق جمع آياتها المتفرقة، والنظر فيها، بشروط مخصوصة، لبيان معناها واستخراج عناصرها، وربطها برباط جامع"[1]، من بين الملاحظات الأولية التي يمكن تسجيلها على هذا التعريف اعتبار التفسير الموضوعي علما، وما هو في الحقيقة إلا منهجا من مناهج التفسير، ولا يمكن التسوية بين العلم والمنهج، كما أشار إلى ذلك زياد خليل الدغامين، لأن المنهج وسيلة، والعلم غاية[2].

والملاحظة الثانية على هذا التعريف هو تركيزه على أن الموضوعات والقضايا تستقى من داخل النص القرآني، وهذا بخلاف ما ذهب إليه مصطفى مسلم، والذي تأثر في الحقيقة برأي محمد باقر الصدر، والذي يذهب إلى أن" الدراسة الموضوعية هي تلك التي تطرح موضوعا من الموضوعات في أي حقل من حقول الإنسان والكون والحياة، وتتجه إلى درسه وتقييمه من زاوية قرآنية بهدف الخروج من خلاله بنظرية قرآنية محددة إزاءه"[3]، وعليه فهناك من يرى الانطلاق من النص والعودة إلى النص، وآخرون يرون الانطلاق من الواقع والعودة إلى النص.

وفي الحقيقة فإن باقر الصدر يقر بالمعنى الأول، لكنه ينتصر للمعنى الثاني، وذلك اعتمادا على المقارنة التي أجراها بين التفسير والفقه، قال:" من خلال المقارنة بين الدراسات القرآنية والدراسات الفقهية، نلاحظ اختلاف مواقع الاتجاهين على الصعيدين، فبينما انتشر الاتجاه الموضوعي وساد على الصعيد الفقهي منذ خطوات نموه الأولى..."[4].
فهو يرى أن الفقه تطور وبقي فاعلا في حياة المسلمين لاستخدامه المنهج الموضوعي أولا،

---

[1]- عبد الستار فتح الله سعيد، المرجع السابق، ص20.

[2]- زياد خليل الدغامين، التفسير الموضوعي ومنهجية البحث فيه، دار عمار، عمان، الأردن، ط1 : 1428هـ- 2007م، ص21.

[3]- محمد باقر الصدر، السنن التاريخية في القرآن، أعاد صياغته : محمد جعفر شمس الدين، دار المعارف للمطبوعات، دمشق، ط:1409هـ- 1989م، ص33.

[4]- محمد باقر الصدر، المرجع السابق، ص32- 33 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثم يشير إلى السبب الثاني بقوله:" يبدأ بالواقع القائم وينتهي إلى الشريعة في مقام التعرف على حكم هذا الواقع"[1]، فالسبب الثاني لتطور الفقه هو ارتباطه بالواقع، ولهذا فلكي يتطور التفسير عليه أن ينطلق من الواقع، وأن يستخدم المنهج الموضوعي.

وعليه فالتفسير الموضوعي يجب أن ينطلق من الواقع، وذلك من خلال القضايا التي يثيرها واقع المسلمين وغيرهم، ومن خلال ملاحظة ما جاد به الفكر الإنساني في معالجة هذه المسائل، ثم يعود إلى النص القرآني لعرض هذه الآراء على القرآن الكريم، ليستخرج في الأخير نظرية أو تصورا لعلاج الواقع الذي يعيشه المسلمون.

رابعا: تعريف القصص القرآني

سنبدأ أولا بالتعريف اللغوي للقصص، ثم نأتي إلى التعريف الاصطلاحي، جاء في كتاب العين للخليل قوله:" القص: قص الشاة، وهو مشاش صدرها المغروزة فيه شراسيف الأضلاع، وهو القصص أيضا [...] والقاص: يقص القصص قصا، والقصة معروفة. ويقال في رأسه قصة أي جملة من الكلام ونحوه"[2]، ثم يضيف:" جمعت قصيصته مع بني فلان أي بعيرا يقص أثر الركاب"[3]، وجاء في المحكم والمحيط لابن سيده قوله:" والقصة: الخبر، وهو القصص [...] وقص آثارهم قصا [...] وتقصصها: تتبعها بالليل، وقيل: هو تتبع الأثر أي وقت كان..."[4]. وجاء عن ابن دريد قوله:" وقص الحديث يقصه قصصا، وكذلك اقتفاء الأثر قصص أيضا. قال الله تعالى: ﭽ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿﮀ [الكهف/64] ..."[5]، من خلال هذه النصوص وغيرها، نصل إلى أن القص هو القطع[6]، لهذا سمي الجزء المقطوع من الشعر قصاصة، كما أن القص يطلق على جزء من جسم الشاة، خاصة صدرها.

1- محمد باقر الصدر، المرجع السابق، ص37- 38

2- الفراهيدي، الخليل بن أحمد، المرجع السابق، ج3/ص395.

3- الفراهيدي، الخليل بن أحمد، المرجع السابق، ج3/ص396.

4- ابن سيده، المرجع السابق، ج6/ص65.

5- ابن دريد، المرجع السابق، ج1/ص 142.

6- ابن منظور، المرجع السابق، م5/ج39/ص 3650.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وعليه فالرابط بين هذه المعاني هو أن القص يشمل معنى الجزء أو الأثر الباقي من الكل، ولهذا نجد من معاني القص تتبع الأثر حتى سمي البعير الذي يتبع الأثر قصيصة، ثم انتقل بالأمر من جانبه المادي المحسوس إلى جانبه المعنوي، حيث أن قص الحديث هو الإخبار به.

وخلاصة القول أن المعنى اللغوي للقص والقصص يرتبط بالعناصر التالية:

1-القطع (قطع جزء من كل)

2-تتبع الأثر

3-الإخبار بالحديث

هذه المعاني اللغوية نلحظها في آيات القرآن الكريم، جاء في المفردات للراغب الأصفهاني:" القصص تتبع الأثر[...] قال: ﭽﭻ ﭼ ﭽ ﭾﭼ [الكهف/64]، ﭽﮬ ﮭ ﮮﭼ[القصص:11] [...] والقصص الأخبار المتتبعة، قال: ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠﭼ [آل عمران/62]..."[1]، وجاء في عمدة الحفاظ:" قوله تعالى: ﭽﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﭼ [يوسف/3] أي نبين لك أحسن البيان، من قولهم : قص فلان الخبر أي أتى بقصته من قصها، وأصله من قص الأثر أي تتبعه متى عرف صاحبه أين سلك..."[2]، وعليه فالمفردات القرآنية لا تخرج عموما عن المعنى اللغوي الذي ورد عن العرب في المعاجم اللغوية، خاصة منها تتبع الأثر، والإخبار بالأحداث الماضية.

قال عبد الكريم الخطيب: "ونحن حين ننظر في المعنى اللغوي للقصة نرى أن أصل اشتقاقها يتلاقى مع المفهوم الذي قام عليه أصل التسمية للقصص القرآني..فالقصة مشتقة من القص وهو تتبع الأثر"[3]، ثم يضيف مبينا:" فالقص للأثر أشبه بما يعرف في عصرنا هذا بتصوير البصمات أو رفع الآثار وتصويرها، ليستدل منها على ما وراءها من أحداث

1- الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ت: محمد سيد كيلاني، (د، ت)، ص404.

2- السمين الحلبي، أحمد بن يوسف بن عبد الدايم، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، ت: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1: 1417هـ- 1996م، ج3/ص312.

3- عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، دار المعرفة، بيروت، (د، ت)، ص44.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مضت، وليمسك بما يقدر على إمساكه منها"[1]. فالقرآن الكريم عندما يقدم القصص فإنما يضع بين أيدينا الآثار الباقية عن الرسالات والأمم لكي نصل إلى اكتشاف ما وراءها من وقائع وأحداث ودروس وعبر.

هذا هو المعنى اللغوي في علاقته بالمعاني التي وردت في الآيات القرآنية، فما هو المعنى الاصطلاحي للقصص القرآني؟ يقول مناع القطان في ذلك:" قصص القرآن: أخباره عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة"[2]، ويقصد بأحوال الأمم الماضية أحوال الأمم الغابرة مثل عاد وثمود والفراعنة وغيرهم، والنبوات السابقة هي قصص الأنبياء عليهم السلام، أما الحوادث الواقعة فهي الحوادث التي جرت أثناء السيرة النبوية.

انطلاقا من هذا التعريف قام العلماء بتقسيم القصص القرآني إلى أنواع ثلاثة[3]، هي:

1- قصص الأمم الغابرة

2- قصص الأنبياء

3- قصص السيرة النبوية

ذلك التعريف الاصطلاحي، وهذا التقسيم الثلاثي هو الذي استقر عليه الأمر عند معظم المهتمين بعلوم القرآن. وبعد استعراض تعريف التفسير الموضوعي، وتعريف القصص القرآني، نأتي إلى بحث قضية نشأة وتطور التفسير الموضوعي.

المبحث الثاني: نشأة وتطور التفسير الموضوعي

اختلف الباحثون حول مسألة نشوء وتطور التفسير الموضوعي بين من يذهب إلى أنه حديث النشأة ومن يرى أنه قديم النشأة، من الذين يرون حداثة التفسير الموضوعي زياد خليل الدغامين حيث يقول: "يجدر القول أن التفسير الموضوعي هو من نتاج هذا

1- عبد الكريم الخطيب، المرجع السابق، ص45.

2- مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مكتبة وهبة، القاهرة، ط7: 1997م، ص300. وينظر: صابر حسن أبو سليمان، مورد الظمآن في علوم القرآن، الدار السلفية، بومباي، الهند، ط1: 1404هـ- 1984م، ص115.

3- ينظر: موسى إبراهيم الإبراهيم، بحوث منهجية في علوم القرآن، دار عمار، عمان، الأردن، ط2: 1416هـ- 1996م، ص185. وكذا: مناع القطان، المرجع السابق، ص301.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العصر"[1]، ومنطلق هذا الرأي أن التفسير الموضوعي مصطلح حديث، وأن التأليف فيه جديد، حتى أن قواعده وضوابطه وخطواته لم توضع إلا حديثا.

ورغم رفض الدغامين لفكرة قدم النشأة إلا أنه يقر بوجود بعض البذور بداية من تفسير القرآن بالقرآن، وصولا إلى أعمال الجاحظ مثل "النار في القرآن" و"الملائكة في القرآن"، وبعض أنواع العذاب المذكور في القرآن مثل " العذاب بالجراد والقمل والماء"[2]، فمع إقراره بوجود هذه البذور إلا أنه يرفض رفضا قاطعا بداية التفسير الموضوعي في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، ويرد في الوقت نفسه على الذين يرون أن التأليف في الأشباه والنظائر ومجاز القرآن وغريبه يعتبر من التفسير الموضوعي، مثل ما ذهب إليه أحمد السيد الكومي ومحمد يوسف القاسم[3]. فهو يرد عليهم على أساس أن هذه الجهود وإن عالجت موضوعا مفردا فإنها تفتقر إلى الرابط بين مفردات ذلك الموضوع وعناصره، وليس من أهدافها التعرف على موقف القرآن من الموضوعات التي درستها، ثم هي موضوعات حول القرآن وليست في القرآن[4]، وهو محق في ذلك فالدراسات حول غريب القرآن ومجاز القرآن وإعجازه لا تعتبر من التفسير الموضوعي.

ذلك بالنسبة للذين يرون أن التفسير الموضوعي منهج حديث، أما بالنسبة للذين يرون أنه قديم، فإنهم يختلفون بين متوسع في الأمر وبين مضيق، وهذا يعود إلى مدى اقتناعهم بعراقة هذا المنهج، وإلى مدى استدلالهم بالوقائع والأعمال والأدلة التي تخدم رأيهم هذا. فعبد الستار فتح الله سعيد مثلا، يؤكد على قدم المنهج ويقوم بتقسيم مراحل تطوره كما يلي:

أولا: العهد النبوي

---

[1] – زياد خليل الدغامين، المرجع السابق، ص27.

[2] – زياد خليل الدغامين، المرجع السابق، ص 31.

[3] – أحمد السيد الكومي، محمد أحمد يوسف القاسم، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ط1: 1402هـ-1982م، ص20-21.

[4] – زياد خليل الدغامين، المرجع السابق، ص 30.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثانيا: في عصر الصحابة والتابعين

ثالثا: الاختصاص محور التفسير الموضوعي الجديد[1].

أكد مصطفى مسلم أن التفسير الموضوعي لم يظهر بهذا المصطلح إلا في القرن الرابع عشر الهجري، عندما قررت هذه المادة ضمن مواد قسم التفسير بكلية أصول الدين بالجامع الأزهر، إلا أن لبناته وجذوره الأولى كانت موجودة منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، وما كان يلجأ إليه الصحابة من الجمع بين الآيات، وجمع الفقهاء للآيات ذات الصلة بالموضوع الواحد، ثم التأليف في الدراسات الموضوعية اللغوية مثل المفردات والأشباه والنظائر، والغريب، وغيرها من علوم القرآن إلى عصرنا الحالي حيث ظهرت دراسات حول الإنسان في القرآن، واليهود في القرآن وغيرها[2].

وفي الاتجاه نفسه ذهب صلاح عبد الفتاح الخالدي إلى الحديث عن بدايات التفسير الموضوعي وبذوره في ضوء المراحل التالية:

أولا: تفسير الرسول صلى الله عليه وسلم لبعض آيات القرآن

ثانيا: ابن عباس يجمع بين آيات متعارضة في الظاهر

ثالثا: إفراد بعض علوم القرآن بعلوم خاصة[3]

وفي المنحى نفسه يذهب أحمد رحماني إلى الحديث عن قدم نشأة التفسير الموضوعي، ويتوسع في القضية، ويقسم مراحل ظهور المنهج حسب ما يلي:

الإرهاصات:

أولا: مرحلة ما قبل التأليف الفقهي

ثانيا: مرحلة التفسير بطريقة الفقهاء

التأليف التطبيقي:

---

[1]- عبد الستار فتح الله سعيد، المرجع السابق، ص28-33 .

[2]- مصطفى مسلم، المرجع السابق، ص17-22. وينظر كذلك: عباس عوض الله عباس، محاضرات في التفسير الموضوعي، دار الفكر، دمشق، سورية، ط1: 1428هـ- 2007م، ص 20- 26.

[3]- صلاح عبد الفتاح الخالدي، المرجع السابق، ص32-35 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أولا:مرحلة التأليف الملتبس بالتفسير الموضوعي

ثانيا: مرحلة ظهور علم المناسبات والتنبه للوحدة الموضوعية للسورة

النضج والتنظير:

أولا: مرحلة وضع الفهارس التفصيلية للآيات القرآنية

ثانيا: مرحلة التطبيق

ثالثا: التنظير[1].

تتجلى إضافة أحمد رحماني في إشارته إلى مرحلة التفسير بطريقة الفقهاء، حيث تحدث عن مرحلة ما قبل التأليف الفقهي، ويقصد بها مرحلة تفسير الرسول عليه الصلاة والسلام وتفسير الصحابة رضوان الله عليهم، ثم تناول مرحلة التفسير الفقهي، وفي الحقيقة عمله هذا جاء تأثرا منه بما ذهب إليه محمد باقر الصدر، والذي جعل عمل الفقهاء تفسرا موضوعيا، ولاحظ كما ذكرنا من قبل أن الفقه تطور لارتباطه بالواقع واستخدامه للمنهج الموضوعي.

لقد أشار مصطفى مسلم إلى عمل الفقهاء، لكنه لم يتوسع في المسألة كما توسع فيها أحمد رحماني. ثم إن من الأمور التي اهتم بها مصطفى مسلم من جهة، ولم يثبتها في مراحل التطور من جهة أخرى، لكن أحمد رحماني توسع فيها وبينها جيدا، وهذه الأمور هي ظهور علم المناسبات والتنبه للوحدة الموضوعية للسورة القرآنية. لقد اعتمد مصطفى مسلم على علم المناسبات للقول بوجود نوع آخر من التفسير الموضوعي هو التفسير الموضوعي للسورة القرآنية، لكنه لم يتوسع في الحديث عن علم المناسبات كمرحلة من مراحل تطور المنهج.

ما يمكن ملاحظته على تقسيم أحمد رحماني تردده بشأن ما سماه بالتأليف الملتبس بالتفسير الموضوعي، ويقصد به التأليف في بعض علوم القرآن، حيث يطرح السؤال التالي:" هل يمكن أن نعد تلك الدراسات القرآنية المختلف بشأنها من التفسير الموضوعي"[2]، ثم

---

[1]- أحمد رحماني، التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا، ص 103- 122.

[2]- أحمد رحماني، التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا، ص 116.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ينقل رفض عبد الستار فتح الله سعيد لهذا الرأي، وفي المقابل يأتي برأي مصطفى مسلم المؤيد لهذا الاتجاه. والحق يقال أن عبد الستار فتح الله سعيد مصيب فيما ذهب إليه، وهذا ما ذهب إليه زياد خليل الدغامين الذي يرى أن هذه الدراسات هي مباحث حول القرآن وليست في القرآن.

بعد ذلك يشير رحماني إلى رفض عبد الستار فتح الله سعيد لعلم المناسبات، وهو في ذلك ينسجم مع رأيه بوجود نوع واحد فقط للتفسير الموضوعي هو التفسير الموضوعي للموضوعات القرآنية، لكن مصطفى مسلم يحتفي بهذا العلم لأنه المستند الأساسي للقول بوجود النوع الثاني وهو التفسير الموضوعي للسور القرآنية.

كذلك مما يتميز به تقسيم أحمد رحماني تفصيل المرحلة الأخيرة، والتي لم يهتم بها السابقون، خاصة حديثه عن وضع الفهارس التفصيلية للآيات القرآنية، ومرحلتي التطبيق، والتنظير. ورغم هذه الجهود التي بذلت للتأصيل للمنهج الموضوعي، إلا أننا لم نلحظ ولا إشارة واحدة إلى القصص القرآني، والذي يعتبر بحق شهادة واضحة وبينة على استخدام المفسرين للمنهج الموضوعي.

من خلال استعراض جهود هؤلاء الباحثين في التفسير الموضوعي بداية من السيد الكومي، عبد الستار فتح الله سعيد، مصطفى مسلم، زياد خليل الدغامين، صلاح عبد الفتاح الخالدي، أحمد رحماني، وغيرهم، لم نلحظ ولو إشارة واحدة إلى القصص القرآني، ولا إلى قصص الأنبياء أصلا.

أكثر من ذلك فإن أحمد جمال العمري الذي كان عنوان كتابه "دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني"[1]، لم يشر إلى التأليف في القصص القرآني كمرحلة من مراحل نشوء التفسير الموضوعي. لقد تناول في دراسته هذه مسائل منها "التفسير الموضوعي بين الماضي والحاضر"[2] و"نشأة التفسير الموضوعي واقترانه بالتفسير الأدبي"[1]، لكنه لم يتحدث

---

[1]– أحمد جمال العمري، دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1: 1406هـ- 1986م.

[2]– أحمد جمال العمري، المرجع السابق، ص47.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عن التأليف في قصص الأنبياء كعمل يدل على أصالة هذا المنهج وعراقته عند المفسرين خاصة عند المؤرخين منهم من أمثال الطبري وابن كثير.

[1]– أحمد جمال العمري، المرجع السابق، ص61–62.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المبحث الثالث: القصص القرآني والتفسير الموضوعي

لا يمكننا الحديث عن علاقة القصص القرآني بالتفسير الموضوعي قبل التعرف على تاريخ التأليف في قصص الأنبياء، خاصة وأن البحث في هذه المسألة سيجرنا لا محالة إلى مجال البحوث والدراسات التاريخية .

جاء في كتاب "المسلمون وكتابة التاريخ"لعبد العليم عبد الرحمن خضر قوله: "ولعلماء المسلمين صور متنوعة للكتابة التاريخية نذكر منها العالم والأقاليم والمدن"[1]، فالمسلمون كانوا يهتمون بتدوين التاريخ، ومنه تاريخ العالم منذ خلق الله تعالى الكون والبشرية بدءا بآدم عليه السلام. وفي هذا النوع من التاريخ سنجد تاريخ الأنبياء وقصصهم، ومن أوائل من كتب في هذا المجال أبو حنيفة الدينوري، واليعقوبي، الذي وضع كتابه على أساس التعاقب الزمني للشخصيات التاريخية كالأنبياء والملوك، ثم الإمام الطبري صاحب "تاريخ الرسل والملوك"، ثم المسعودي صاحب "مروج الذهب" وصولا إلى ابن الجوزي صاحب "المنتظم"[2]. يطلق على هؤلاء المؤرخين اسم المؤرخين العالميين، لأنهم اهتموا بتاريخ العالم أجمع.

يذكر محمد ياسين مظهر صديقي أن القرن الثالث الهجري"التاسع الميلادي" هو العصر الذهبي لتدوين التاريخ عند المسلمين، حيث ظهرت المآثر العلمية للمؤلفين الكبار، منهم عبد الملك بن هشام (ت218هـ) صاحب السيرة، ومحمد بن جرير الطبري (ت310هـ)، وأحمد بن يحي البلاذري (ت279هـ)، فأعمال هؤلاء من أهم المصادر التاريخية. كما يشير إلى أعمال آخرين منهم اليعقوبي (ت292هـ) وأبي حنيفة الدينوري (ت282هـ) رغم ما يشوب كتبهم من أسلوب أسطوري، بخلاف ابن قتيبة الدينوري (286هـ)، كما يتحدث عن من جاء بعدهم أمثال علي بن حسين المسعودي (ت345هـ)،

1- عبد العليم عبد الرحمن خضر، المسلمون وكتابة التاريخ دراسة في التأصيل الإسلامي لكتابة التاريخ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الدار العالمية للكتاب، ط:1415هـ- 1995م، ص73.

2- محمد ياسين مظهر صديقي، الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، رابطة الجامعات الإسلامية، ط1: 1408هـ-1988م ص11-13 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وحمزة الأصفهاني (ت360هـ) وغيرهم وصولا إلى عبد الرحمن بن خلدون (ت808هـ)[1]. ولهذا فالارتباط كبير بين التأليف في تاريخ الخليقة منذ آدم عليه السلام والتأليف في القصص القرآني خاصة قصص الأنبياء عليهم السلام، وسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام كذلك.

هناك من جعل سيرة الرسول عليه السلام حلقة من حلقات التاريخ العام، مثلما فعل الطبري وابن هشام، وهذا الأخير قسم سيرته إلى ثلاثة أقسام هي: المبتدأ، والمبعث، والمغازي[2]. فابن هشام يتناول في المبتدأ التاريخ الجاهلي، ويقسمه إلى أربعة فصول "يتناول في أولها تاريخ الرسالات السابقة على الإسلام، وثانيها تاريخ اليمن في الجاهلية، وثالثها تاريخ القبائل العربية وعباداتها، والرابع تاريخ مكة وأجداد الرسول صلى الله عليه وسلم"[3]، وأما المبعث فيتناول فيه حياة الرسول عليه الصلاة والسلام في مكة، والمغازي يذكر فيها حياته عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة.

خلاصة القول أن الكتابة في قصص الأنبياء كان ضمن كتابة التاريخ العام، وضمن كتابة السيرة النبوية، وارتباط القصص بالتاريخ جعل البعض يسمي قصص الأنبياء بتاريخ الأنبياء، فهذا الخطيب البغدادي ألف كتابه"تاريخ الأنبياء" وقد استقاه من كتب التفسير والمفسرين[4]. ومن المؤرخين مثلا: ابن اسحاق، واليعقوبي الأخباري، والطبري صاحب "تاريخ الرسل والملوك"[5].

يحاول أصحاب دائرة المعارف الإسلامية أن يثبتوا علاقة قصص الأنبياء بما جاء في العهد القديم، لكنهم في بعض الأحيان يعودون للتأكيد على أن الرسالة الإسلامية هي التي

---

[1] – محمد ياسين مظهر صديقي، المرجع السابق، ص13.

[2] – ابن هشام، أبو محمد عبد الملك، السيرة النبوية، ت: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، (د، ت)، ج1/ص10.

[3] – ابن هشام، أبو محمد عبد الملك، المرجع السابق، ج1/ص11.

[4] – الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي، تاريخ الأنبياء، ت: آسياكوليبان علي البارح، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1: 1425هـ- 2004م، ص:17-18.

[5] – الخطيب البغدادي، المرجع السابق، ص:19-20.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أعطت لهذه الأخبار قيمتها التاريخية والعلمية والتربوية، فحياة الرسول عليه السلام منعكسة في هذه القصص[1]. فالمستشرقون رغم تعمقهم في الدراسة والبحث، إلا أن عدم موضوعيتهم دفعتهم إلى إبراز بعض الجوانب وإغفال أخرى، فهم في هذا المجال يبرزون الكتب التي قدمت قصص الأنبياء في شكل روائي أسطوري، ويغفلون تلك التي قدمته في شكل علمي رصين. لأجل ذلك تجدهم يركزون على أعمال القصاص مثل "عرائس المجالس" لأبي إسحاق أحمد الثعالبي (ت427هـ-1036م)، والروايات القصصية التي دونت باسم محمد بن عبد الله الكسائي[2]. ورغم ذلك فهم يعودون في الأخير للتأكيد على البعد الدعوي للقصص الذي جاء به القرآن الكريم.

في تحقيقه لقصص الأنبياء لابن كثير يذكر عبد الحي الفرماوي أن من أوائل من كتب في القصص وهب بن منبه (ت114هـ)، والكسائي النحوي (ت189هـ) وسهل بن عبد الله التستري (ت283هـ) وغيرهم وصولا إلى عمل المفسر ابن كثير[3]. وهكذا فالتأليف في قصص الأنبياء كان عملا معهودا عند المتقدمين، مع ملاحظة أن تقديمه كان بطريقتين مختلفين، إحداهما الطريقة التاريخية العلمية، وثانيهما الطريقة الروائية الأدبية القريبة من الطرح الأسطوري الخرافي الغرائبي.

نأتي الآن للحديث عن علاقة القصص القرآني بالتفسير الموضوعي، ولماذا أغفل المنظرون للتفسير الموضوعي مرحلة مهمة مثل مرحلة التأليف في القصص القرآني؟ بداية لعل من أسباب عدم الانتباه لهذه المرحلة هو أن القصص القرآني وقصص الأنبياء نشأ في أحضان كتب التاريخ وكتب السيرة النبوية، ولا أدل على ذلك من عمل الإمام الطبري

---

[1]- مجموعة من المستشرقين، موجز دائرة المعارف الإسلامية، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ط1: 1419هـ- 1998م، ج27/ص 8332- 8333.

[2]- مجموعة من المستشرقين، موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج27/ص 8333.

[3]- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء اسماعيل، قصص الأنبياء، ت: عبد الحي الفرماوي، دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة، مؤسسة النور للنشر والإعلان، المنصورة، مصر، ط5: 1417هـ- 1997م، ص6.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حيث جعل "قصص الأنبياء" جزءا ضمن في موسوعته التاريخية "تاريخ الرسل والملوك"[1]، ولم يفصل قصص الأنبياء عن غيره من أحداث التاريخ. والأمر نفسه ينطبق على الإمام ابن كثير، والكتاب الذي ينسب له "قصص الأنبياء" ما هو في الحقيقة إلا جزءا من أجزاء كتابه في التاريخ "البداية والنهاية"[2]، وحتى الذين ألفوا في قصص الأنبياء قبل الطبري مثل أبي حنيفة الدينوري، وابن واضح اليعقوبي، وابن قتيبة، وحمزة الأصفهاني، إنما كتبوا ذلك ضمن التاريخ العام، حيث أنهم أدخلوا فيه حتى تاريخ سكان الشمال ,وأهل الصين، و الحضارات الأخرى[3].

ورغم أن المصدر الأساسي لقصص الأنبياء هو القرآن الكريم والسنة النبوية، إلا أنه انفصل عن ميدان التفسير وتحول إلى ميدان التاريخ والأدب، وهذا الأمر هو الذي يفسر لنا غفلة منظري التفسير الموضوعي عن اعتبار التأليف في القصص القرآني مرحلة متقدمة من مراحل نشوء وتطور التفسير الموضوعي.

يمكننا الاستئناس بقول محمد كريم الكواز حيث يقول:"مع ملاحظة أن قصص الأنبياء هنا تدل على نوع أدبي نشأ من خلال إعادة صياغة القصص القرآنية من قبل القصاص والمفسرين والمؤرخين"[4]، وعليه فالقصص القرآني نشأ في البداية في أحضان التفسير، لكنه انفصل ليجد مكانه في أحضان الأدب والتاريخ. والسبب في تألقه ضمن الأدب والتاريخ، وضموره ضمن التفسير هو أن التفسير في البداية كان يعتمد المنهج التحليلي، ولم يستخدم المنهج الموضوعي إلا في حدود ما يخدم التفسير التحليلي.

1- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، ت: محمد أبو الفضل، دار المعارف، القاهرة، (د، ت).

2- ابن كثير، عماد أبو الفداء إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، ت:عبد عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الجيزة، مصر، ط: 1997م.

3- ينظر: مجموعة من المستشرقين، موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج7/ ص2128.

4- محمد كريم الكواز، من أساطير الأولين إلى قصص الأنبياء، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط1: 2006م، ص8.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يتميز التاريخ بالمنهج التاريخي الزمني والموضوعي، والقصص القرآني لا يمكنه البروز إلا في إطار المنهج الموضوعي، وعملية القص تتعدى في الحقيقة الجوانب التاريخية إلى موضوعات الوجود، لهذا يتحدث المؤرخون المسلمون عن خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان، يقول الكواز: "لقد تناول القص القرآني موضوعات الوجود كلها، الوجود الحسي والوجود الغيبي، فبين كيفية خلق السماوات والأرض وما بينهما [...] وكذلك خلق الإنسان [...] وقدم صورة للغيب ومكوناته"[1]. وهذه الملاحظة تنطبق على حقيقة التفسير الموضوعي الذي يجب أن ينطلق من الواقع والكون والحياة ليعود إلى القرآن الكريم لاستخراج تصورات جديدة حول الحياة والكون.

مما يؤسف له أن منظري التفسير الموضوعي لم ينتبهوا إلى هذه المرحلة الأساسية، مرحلة التأليف في القصص القرآني، وكمثال آخر على هذا الإهمال والتغييب لقصص الأنبياء، عبد الحي الفرماوي الذي حقق كتاب"قصص الأنبياء" لابن كثير، لم ينتبه إلى هذه القضية، رغم أنه كان من الأوائل الذين نظروا للتفسير الموضوعي من خلال كتابه " البداية في التفسير الموضوعي"[2]، والذي صدر في طبعتين وكانت طبعته الأخيرة سنة 1977م.

الدراسة الموضوعية للقرآن الكريم لم تظهر في أعمال المسلمين فقط، بل تمثلت في جهود المستشرقين رغم الاختلاف الصريح في الموضوعات والأهداف، والحقيقة التي يجدر تسجيلها أن المستشرقين كانوا من الأوائل الذين تفطنوا إلى أن قصص الأنبياء من الدراسات الموضوعية للقرآن الكريم، لكنهم نظروا إليها من المنظور التاريخي لا الموضوعي، وهذا ما يتماشى مع دراساتهم التاريخية من خلال تركيزهم على التتبع الزمن لنزول الآيات القرآنية.

---

[1]– محمد كريم الكواز، المرجع السابق، ص26.

[2]– ينظر: أحمد رحماني، التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا، ص 79.

وكذا: أحمد بن عثمان رحماني، مناهج التفسير الموضوعي وعلاقتها بالتفسير الشفاهي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، جدارا للكتاب العالمي، عمان، الأردن، ط:2008،، ص17.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

خلال استعراض سامر عبد الرحمن رشواني للدراسات الموضوعية للقرآن الكريم عند المستشرقين، أشار إلى اهتمامهم بنزول القرآن وجمعه وتدوينه من جهة، وعندما لم يستطيعوا تفهم القرآن بما هو عليه، حاولوا دراسته بالطريقة الموضوعية، ولهذا حاولوا ترتيبه بالطريقة الموضوعية[1]، وكان من نتائج تلك الأعمال المعاجم الخاصة بالمفردات، والمعاجم الموضوعية منها "تفصيل آيات القرآن الحكيم"[2] للمستشرق الفرنسي جون لابوم.

ورغم أن المستشرقين كان جل اهتمامهم بالأديان خاصة اليهودية والمسيحية، بهدف رد ما جاء به الإسلام إليهما، فإن البعض منهم اهتم بالتاريخ والقصص القرآني، يقول سامر عبد الرحم رشواني:" فقد نشر المستشرق الألماني هوروفيتش (1874م-1931م) عددا من البحوث تناول في جانب منها النصوص القصصية في القرآن وقسمها إلى عموميات وشكليات، أساطير رادعة، قصص الأنبياء والصالحين، النبوة في القرآن، وتناول في الجانب الآخر الأسماء الأعلام في القرآن"[3]، ثم يضيف قائلا: "يمكن القول بأن كل ما سبق ذكره من دراسات إنما يندرج في الإطار التطبيقي لتفسير القرآن موضوعيا"[4]، وفي هذا النص تأكيد على أن قصص الأنبياء مرحلة أساسية في تطور استخدام المنهج الموضوعي في التفسير.

نعم تنبه المستشرقون للدراسة الموضوعية للقرآن الكريم، لأنهم لم يتمكنوا من فهمه وترجمته إلى لغاتهم بحسب ما هو عليه، لذلك اهتدوا إلى الدراسة الموضوعية، وقد وجدوا في القصص القرآني ضالتهم، خاصة أنهم يحتفون بالمنهج التاريخي الذي يخدم طروحاتهم، لأن من أهم أهدافهم رد ما جاء به الإسلام إلى الأصول اليهودية المسيحية حسب زعمهم.

---

[1]- سامر عبد الرحمن رشواني، منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم دراسة نقدية، دار الملتقى، ط1: 1430هـ- 2007م، ص100-102.

[2]- جون لابوم، تفصيل آيات القرآن الحكيم، ويليه المستدرك لإدوارد مونتيه، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: 1969م.

[3]- سامر عبد الرحمن رشواني، المرجع السابق، ص103.

[4]- سامر عبد الرحمن رشواني، المرجع السابق، ص104.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأمر الذي تنبه إليه المستشرقون ولم يتنبه له المنظرون للتفسير الموضوعي ربما يرجع في الأساس إلى أن المنظرين للتفسير الموضوعي لم يطلعوا على جهود هؤلاء المستشرقين، خاصة مع انحياز هؤلاء إلى طروحات تشكك في الإسلام، وتهدف إلى تأكيد المصدرية اليهودية والمسيحية للقصص القرآني، خاصة من خلال اعتمادهم على الإسرائيليات وكل ما جاء عن الحضارات القديمة من هندية وفارسية ورومانية، فهم يحتفون بما جاء عن هذه الديانات والحضارات ويعمدون إلى التشكيك فيما جاء به القرآن الكريم.

خلاصة القول أن من أهم تجليات تطبيق المنهج الموضوعي في التفسير القصص القرآني، فالعلاقة وطيدة بين القصص القرآني والمنهج الموضوعي في التفسير، بل إن مرحلة التأليف في القصص القرآني وخاصة قصص الأنبياء تعتبر بحق مرحلة حاسمة في نشوء وتطور منهج التفسير الموضوعي، ولا يمكن بأي حال من الأحوال إغفال هذه المرحلة, بل يجب على الباحثين التأكيد على هذه المرحلة، وإدراجها في مراحل النشأة والتطور، وهذا يفرض علينا التوسع في دراسة هذه المرحلة للتأكيد على أصالة وعراقة هذا المنهج عند المفسرين.

خاتمة

قضية البحث في نشأة وتطور التفسير الموضوعي تدخل ضمن البحث في أصالة هذا المنهج، ومحاولة إثبات أنه ليس بالعمل الجديد المبتدع، بل إن أصوله تعود إلى عمل الرسول عليه الصلاة والسلام والصحابة والتابعين، خاصة من خلال تفسير القرآن بالقرآن.

أعمال المفسرين الأوائل مثل الطبري وغيره تحتاج إلى سبر لأغوارها لملاحظة المنهج الموضوعي فيها، وهذا لا يتأتى من خلال البحث في تفاسيرهم لأنها تعتمد المنهج التحليلي التجزيئي. ولهذا فالجهد التطبيقي البارز الذي يؤكد أصالة المنهج يظهر من خلال أعمال هؤلاء المفسرين في مجال التاريخ، يتجلى ذلك في القصص القرآني عامة وقصص الأنبياء خاصة.

رغم أن التأليف في قصص الأنبياء كان متقدما جدا إلا أن المنظرين للتفسير الموضوعي لم ينتبهوا إليه، فهو مرحلة مهمة من مراحل نشوء وتطور التفسير الموضوعي. والباحثون لم ينتبهوا لهذا الأمر لأن القصص القرآني انفصل عن التفسير واندرج ضمن

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الدراسات التاريخية والأدبية. وقد يعود الأمر إلى أن المنظرين مثل محمد باقر الصدر وغيره اهتموا بالمجالين الفقهي والحديثي لملاحظة بوادر استخدام المنهج الموضوعي، وهناك من أشار إلى الأعمال الأدبية لكنه لم يتفطن إلى قصص الأنبياء مثل زياد خليل الدغامين.

لعل المستشرقين باستخدامهم للدراسة التاريخية للقرآن هم من أوائل من تنبه للقصص القرآني كمظهر من مظاهر الموضوعية في دراسة النصوص القرآنية، لكن ما يعاب عليهم تركيزهم على إثبات علاقة القرآن والإسلام بالديانات والثقافات القديمة، أو بالديانتين اليهودية والنصرانية. وكل ذلك للتشكيك في الإسلام والقرآن. ولهذا لم يكن من هدفهم إثبات أصالة هذا المنهج، وأنه مرحلة من مراحل تطور استخدام المنهج الموضوعي.

خلاصة القول أن منهج التفسير الموضوعي أصيل عند المفسرين، ولا أدل على ذلك من تأليف المفسرين المؤرخين في قصص الأنبياء من أمثال الطبري وابن كثير، مستخدمين في ذلك المنهج الموضوعي، رغم ارتباط ذلك بمجال التاريخ لا بمجال التفسير.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com